

المنطلقة من هنا وهناك، أو رجالات العلم والاداب، فهي أبعد من أن تكون لها مكانة في التاريخ الرسمي.

لذلك، يصبح من اللازم في اطار حركة فكرية تقديمية نابعة من صميم الحركة الوطنية، أن تساهم في تشريح التاريخ المغربي تشريحا جديدا، وتفهم التطور التاريخي فهما جديدا وعميقا من منظور علمي شامل في اطار الصراع مع الاستعمار القديم ومع السلطة المركزية معا، خاصة حينما تشكل هذه السلطة سلطة نخبة اقطاعية كما هو الشأن خلال الفترة العلوية.

وضمن هذه المهمة، نتعرض في هذا الموضوع لانتفاضة تاريخية، تمتد جذورها الى اعماق الصحراء. انها انتفاضة الشيخ ماء العينين وأبنائه فيما بعد، هذه الحركة التي استمرت الى ما بعد ١٩٣٠.

الاطار التاريخي للانتفاضة

من الصعب تعميم الربط بين الاحداث بالمفهوم السائد اليوم وبالشكل الذي يجعل الحوادث متراسة، يوءثر بعضها في بعض، وبشكل متفاعل، من الصحراء الى عموم المغرب العربي الى أوروبا. لكن ومع ذلك، فمن الخطأ الانزواء باسم الموضوعية المجردة، والتفرد بالاحداث كأنها منعزلة عن بعضها، وخاصة حينما يكون المبادر فيها والمهاجم هو المستعمر الغاشم الذي يضبط خطته الاحتلالية في أفق واسع وشامل.

ولد الشيخ ماء العينين سنة ١٢٤٦ هجرية (١٨٢٦ ميلادية)، وترعرع في ظل تغيرات وتطورات مغربية عربية ودولية خاصة.

فعلى صعيد المغرب العربي تميزت المرحلة بما اصطلح عليه بالتفكك الرسمي وقيام الحدود الامنة: الثورة السنوسية في ليبيا ضد الاستثمار الايطالي، ثورة عبد القادر في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي، وثورة خير الدين في تونس ضد الاحتلال التركي.

ويعرف العالم العربي نهضة خاصة في مصر والشام، يمثلها في مصر السيد محمد مرتضى الزبيري، ويمثلها في الشام الشيخ عبد الغني النابلسي. وتعرف أوروبا تركيز السلطة بيد البورجوازية التي أصبحت تبحث لها عن منافذ وأسواق ومستودعات بعد صدامها مع الانظمة الاقطاعية في بلدانها. لكن المد البورجوازي الجديد في هذه البلدان، ورغم انتصاراته، حمل في

ملاحم عن ثورة ماء العينين

هناك شخصيات طبعت عصرها لتطبع أجيالا كاملة من التاريخ، ويتجدد رصيدها ودوى موقفها مع تجدد الازمات ورداءة المواقف.

ولعل من سوء الانصاف لتاريخنا الوطني أن نساعد على تكثيف الضبابية عنها، ان لم نقل طمسها المتعمد لدى البعض. لقد تحدثت هذه الشخصيات "الحائظ الامني" المقام حول قبورها، ليظهر بصيص من النور حول بعض الجوانب من تاريخنا النضالي، وليحاول الحكم استغلال نضالية وسمعة "أحمد الهيبة" بن الشيخ ماء العينين لاغراض لا علاقة لها بالنهج الذي سار فيه هذا الاخير لتصبح له مكانة في التاريخ الرسمي كنتيجة لتطور الوضع الاقتصادي والصراع السياسي الجديد في الصحراء.

والحقيقة الناصعة، هي أن هناك سياسة لطمس تاريخ الحركة الشعبية للتحرير المتجسم في الانتفاضات الشعبية العفوية أو المنظمة ضد كل اصناف الاستعمار القديم والجديد، بدءا بالحركة الاحتلالية للاسبان والبرتغال والفرنسيين، وانتهاء بالتحالف الاستعماري مع المخزن، خاصة خلال فترة حكم النظام العلوي؛ لذا فالتاريخ الرسمي المتداول، هو تاريخ الملوك ومنجزاتهم وصراعاتهم العائلية للاستحواذ على السلطة، أما حالة الشعب والمعبرين عنه في مختلف المراحل، من شيوخ الجماعات المنتخبة بالعرف، أو الاصوات الحرة

تطوره تناقضات طبيعية كنتيجة للمخطط الاستغلالي الجديد . ومع ازدهار النظام الرأسمالي ، بدأت الهزات الكبيرة تنال اقتصاده ، فكان الحل الوحيد أمامه : الاتجاه الى تقسيم العالم الى مناطق نفوذ ، انطلاقا من تشريحين رئيسيين للعالم : المستعمرون والمستعمرون .

وبالرغم من أن ثورة ١٨٣٠ ناهضت الفكر الاستعماري واتخذت موقفا معارضا له ، فإن فرنسا قد تسلطت على كثير من المراكز الشاطئية الحساسة في البحر الابيض المتوسط كمنطلق لعدوانها التوسعي اللاحق . وهكذا بدأت عملية احتلال الجزائر وتوجيه غزوات موازية على بعض القبائل في موريطانيا . أما فيما يخص المغرب ، فقد انجهدت فرنسا الى سياسة التخدير والتآمر ، فوقعت معاهدة الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦ مع دول أخرى منها اسبانيا ، ايطاليا بريطانيا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا . . . وتقتضي هذه المعاهدة المصادق عليها في الموء تمر بالاعتراف واحترام وحدة الاراضي المغربية واستقلالها ، مع اعطاء الحرية التجارية للجميع فيها .

وما أن مرت سنة ، حتى بدأت فرنسا تنزل جيوشها بمدينتي وجدة والدار البيضاء لتسبق بقية الاطراف الطامعة في المغرب ، ولتجعلهم أمام الامر الواقع . لقد خاطبت فرنسا المغرب " بالود والصدقة " وقوة السلاح ، وعرضت الحماية كشرط لجلأ جيوشها ؛ وما أن مرت أربع سنوات على الاحتلال حتى صودق عليه ضمنا من طرف دول موءتمر الجزيرة ، ضدا عن استقلال المغرب ، وفرضت الحماية ، فيما بعد يوم ٣٠ مارس ١٩١٢ .

أما بالنسبة لاسبانيا ، فقد كان الامر أدهى ، إذ أن اسبانيا بحكم امتلاكها للامتياز وبحكم جوارها ، فهي بعد فرنسا الدولة التي تهمها مباشرة القضايا المغربية . وان خسارة اسبانيا لكوبا والفلبين جعلتها توجه مطالعها الخارجية نحو المغرب ، ولهذا يتعين تقسيم الاراضي والنفوذ .

لقد أعطيت لاسبانيا منطقتي نفوذ في الشمال والجنوب ، لكنها ترغب في حرية أكثر مقارنة بفرنسا ، وتريد التقسيم الفعلي للمغرب بالقسطاس ، لكن الدخول الفرنسي لبقية المناطق قوى مركزها (أي فرنسا) ، فتوجهت اسبانيا الى انجلترا لحثها على اشراكها في المفاوضات المقبلة حتى لا توضع المناطق الاسبانية تحت الوصاية الفرنسية ، فكان اتفاق ٢٧ نونبر ١٩١٢ .

هذا هو الاطار العام للاحداث التي عرفها المغرب وجنوبه الصحراوي في اطار السياسة الاستعمارية في شمال افريقيا ، فكان من الطبيعي أن تتم ردود فعل تجاه هذه الهجمة الاستعمارية ، أولاها رسمية حكومية ، وثانيها شعبية وطنية .

رد الفعل الرسمي . . والرد الوطني الشعبي

لنلتزم الموضوعية القصوى في مسألة رد الفعل الرسمي ، نعطي الكلمة لكابريال فير الذي ورد في كتابه " في رفقة السلطان الخاصة " (١٩٠٥) :
" ان السلطان مولاي عبد العزيز باشر بهمة عالية أنواع الرياضات المستعملة في الجيش البريطاني وكذلك التنس وكرة القدم (ص: ٨٧) ، وكان القصر يتوفر على آلة لصنع الثلج (ص: ٩١) ، وقد جلب السلطان سكة حديدية للذهاب من قصره الى دار الدبيغ على مسافة أربعة كيلومترات ، وجيء بها من فرنسا الى العرائش ، ولكنه لم يعثر على عجلات قطارها (ص: ١٠٠) ، وكان يلعب النرد (ص: ١٠٤) ، وقد وضع في عهده أول خط تليفوني بمراكش (ص: ١٠٥) ، كما وضع مولد كهربائي لاضاءة القصر في مراكش ، ومصنع تام للاجهزة بفاس (ص: ١٠٩) . وكانت حديقة الحيوانات المجلوبة من ألمانيا بواسطة المنبهي تشتمل على أربعة نمور ، وستة سباع ، وأربعة ضباع ، وحمورقطاء ، وجواميس . . الخ (ص: ١٢٣) . وكان القصر يحتوى على ثلاثة آلاف ساعة زمنية (ص: ١٤٥) . واذا تحرك السلطان صاحبه مدينة كاملة ، قوامها خمسة وأربعون ألف نسمة ، ويحمل خيمة السلطان وحدها ستون جملا ، وهي محاطة بسور من النسيج الكثيف ، تحدد بها الاخبية الاخرى في عمق يبلغ أحيانا ألف متر (ص: ١٥٩ - ١٦٠) . . . "

لقد شغلت الحياة الخاصة في القصر الملك عبد العزيز عما يجري في الحياة العامة ، وعن الصراع الدولي حول الوطن والمخطط الفرنسي / الاسباني تجاه الصحراء ، والتغلغل التدريجي في الشمال والجنوب ، والهجمة المباشرة ، والاندفاع التلقائي لاوسع الجماهير وقادتها الوطنيين لتخليص البلاد من القبضة الاستعمارية المرتقبة .

فقد ظل النظام العلوي ، نتيجة موقعه الطبقي كممثل للاقطاعية حليفة الاستثمار ، نظام تفرقة ونزاعات عائلية وترف وبذخ خيالي ، هيا الظروف الملائمة للتدخل الاستعماري ، فاخذت فرنسا تكمل الحزام على الجزائر وتونس بالجزء الغربي . وفي نفس الوقت ساومت مع بريطانيا بغض الطرف عن جبل طارق ، واطلاق اليد في مصر والسودان ، وايطاليا في ليبيا ، وألمانيا بضم الكونغو الى الكامرون . . . بينما بدأت اسبانيا تركز نفسها كمفاوض طبيعي بإمكانه الاستحواذ النهائي وبالشرعية الدولية على أجزاء من الصحراء ومناطق حساسة في الجنوب ، علاوة على شمال المغرب .

لم يبق أمام الشعب المغربي، تجاه عجز النظام المخزني وتواطئه، سوى التعبئة بوسائله الشعبية للدفاع عن أراضيه، وللوقوف بجانب الثورة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر التي تخلى عنها النظام المركزي في المغرب؛ فاتجه الشعب بأوسع فئاته الواعية لاسقاط نظام عبد العزيز وتعويضه بأخيه عبد الحفيظ.

ويفسر النص التالي للمستشرق السوفييتي لوتسكي حالة الاحتلال الفرنسي والاسباني بقوله:

" شرعت فرنسا عقب مؤتمر الجزيرة الخضراء مباشرة، باحتلال المناطق الرئيسية في مراكش (أى المغرب) . وفي نهاية ١٩٠٦، وجهت فرنسا أسطولها الى طنجة بذريعة حماية الاوروبيين فيها . وكذلك بعثت اسبانيا بأسطولها الى طنجة، مقلدة بغيرة متناهية كل خطوة تخطوها فرنسا في مراكش .

وفي مارس ١٩٠٧، اغتيل في مراكش طبيب فرنسي اسمه "موشان"، وقد تلقي السجلات السرية في المستقبل ضوءا على هذا الاغتيال . ولربما يكون الفرنسيون هم الذين قاموا بتدبيره، اذ يمكن التضحية بحياة طبيب فرنسي واحد من أجل احتلال قسم هام من مراكش (المغرب) . وكعقاب على الاغتيال، احتل الفرنسيون مدينة وجدة وشرق مراكش (المغرب) برمته .

وفي غشت ١٩٠٧، دبر استفزاز جديد، اذ شرعت بالعمل شركة المغرب الفرنسية التي حصلت على امتياز لإنشاء ميناء في الدار البيضاء، وبدأت بشق سكة حديدية ضيقة عبر مقبرة اسلامية، مدنسة القبور بعملها هذا . وبغض النظر عن هذا الحادث، لم يكن سكان مراكش قد استساغوا التغلغل الاجنبي، وقابلوه بمنتهى الغضب . . . فهجم المراكشيون على عمال البناء وهم ساخطون عن تدنيس مقدساتهم، وقتلوا بعض العمال، وضمنهم ستة فرنسيين، فاستغلت فرنسا هذا الحادث كذريعة لاحتلال البيضاء وناحية الشاوية، واحتلت اسبانيا بدورها رأسا في منطقة مليلية .

وأثار الاحتلال الفرنسي موجة تذر في عموم البلاد، كما ان السلطان عبد العزيز أثار سخطا كبيرا لدى القبائل المراكشية التي اعتبرته خائنا وسببا لجميع المصائب التي حلت بالبلاد .

وفي ١٦ غشت ١٩٠٧، أى بعد بضعة أيام من احتلال الدار البيضاء، انعقد في مدينة مراكش مؤتمر شيوخ القبائل الذين قرروا خلع السلطان عبد العزيز، وتنصيب أخيه عبد الحفيظ بدله (انظر نص عقد البيعة في آخر المقال) . واندلعت في البلاد حرب أهلية بين مؤيدي عبد العزيز ومؤيدي عبد

الحفيظ، ومع ذلك فلم تكن هذه الحروب بواقعتها نضالا بين فئتين مدعيتين بالعرش، بقدر ما كانت حركة وطنية تحررية، قامت بها القبائل المراكشية ضد السلطان الذي انحاز الى جانب المحتلين .

وفي يوليو ١٩٠٨، سحق قوات عبد العزيز، وهرب هو نفسه ملتجئا لدى الفرنسيين، وخضعت البلاد برمتها الى السلطان الجديد، ومع ذلك استغل الفرنسيون جميع هذه الاحداث لاحتلال مناطق أخرى سواء في غرب البلاد أو شرقها . . .

٠٠٠ عقب انتصار عبد الحفيظ، واجهت الدول قضية تحديد علاقاتها به، وشرع السلطان عبد الحفيظ نفسه باجراء مفاوضات معها، طمعا في إلغاء احتلال القوات الفرنسية لمنطقتي الدار البيضاء ووجدة، فوافقت الدول على الاعتراف به كسلطان وفق الشروط التالية:

١ - يجب دفع تعويضات الى فرنسا واسبانيا .
٢ - تحتفظ كل من فرنسا واسبانيا بجيشهما في الاجزاء المراكشية المحتلة من قبلهما .

٣ - يراعي السلطان جميع التزامات عبد العزيز الدولية، أى معاهدات الحدود مع فرنسا والتعهدات بخصوص القروض ووثيقة مؤتمر الجزيرة الخضراء . ووافق السلطان عبد الحفيظ على هذه الشروط، وفي يناير ١٩٠٩، اعترفت الدول به سلطانا .

لقد كان لاحتلال المغرب التدريجي من عبد العزيز حتى عبد الحفيظ آثار عظمى على مسار النضال الوطني، فكان من الطبيعي أن يتمثل رد الفعل الشعبي في تنظيم المقاومة الوطنية الشعبية .

ففي الاطلس المتوسط، تزعم موها أو حمو الزياني المقاومة ضد العدو منذ ١٩٠٧، وقت الاحتلال الفرنسي للبيضاء في مسيرة بطولية استشهد في نهايتها سنة ١٩٢٠؛ وفي الشرق انتفاضات الشريف السملالي؛ بالإضافة الى انتفاضة محمد أمزيان بالريف ضد الدخيل الاسباني والتي حمل رايتها فيما بعد البطل عبد الكريم وابنه محمد، وثورة ماء العينين في الصحراء المغربية .

حول مقاومة ماء العينين

لقد شكلت الصحراء منطلقا أساسيا لاغلب الحركات الاجتماعية والسياسية الفعالة في تاريخنا الوطني (عبد الله بن ياسين، يوسف بن تاشفين) .

التجنيد العام وتسليح الجماهير في الصحراء وفي غيرها من المناطق . فأصبح النضال نضالا مزدوجا : ضد الاستعمار والمخزن معا ، وذلك ما واصله أحمد الهيبة في الجنوب .

زيادة على أنها كانت ملتقى الحضارات البربرية والعربية ومدخلا لنشر الاسلام وملجئا للسياسيين الفارين من الاحكام السياسية القائمة في الشرق .

فكان من الطبيعي أن تكون التربة الجافة طبيعيا ، خصبة للفكر الديني الاسلامي بمختلف مشاربه لمواجهة التبشير المسيحي منها الى افريقيا . كما كان من الطبيعي أن تكون الحركات الاصلاحية المنطلقة منها ، أو حولها ذات نزوع نحو التحرر من كل هيمنة خارجية .

ولقد كان لمحمد بن علي السنوسي (من أوائل الحركة الصوفية وأحد بناء الحركة الاصلاحية في شمال افريقيا) تأثير كبير على مجرى الاحداث في الصحراء ، حيث تحركت الطرق وجماعات الدعوة الاسلامية لمواجهة جماعات التبشير المسيحي ، بالإضافة الى دورها البالغ في مقاومة التغلغل الاستعماري . ولقد كان الشيخ ماء العينين أحد أعمدتها الرئيسية .

فمن هذا المناخ الصوفي المناضل ، تكونت اذن حركة وطنية معادية للاستعمار ، تلتف حول الشيخ ماء العينين ، لتتبلور فيما بعد في حركة سياسية وطنية متجددة حول ولده أحمد الهيبة ولتصل في مرحلة ثانية الى حركة وطنية معاصرة .

وقد عمل الشيخ على تأسيس عدة زوايا في مجموع أنحاء المغرب ، نذكر من بينها فاس ومكناس ومراكش وتيزنيت ، اذ بواسطتها استطاع أن يقوى نفوذه وأن يجلب الدعم والمساندة لانتفاضته .

دشن الشيخ ماء العينين مقاومته النضالية بالاتجاه لمقاومة الاحتلال الفرنسي والاسباني بالوسائل البسيطة المتوفرة لديه ، وحرص على استقدام ممثلي السلطة المركزية لتنظيم المقاومة بشكل كبير في الجنوب . وبالفعل ، فحين بيعة الملك عبد الحفيظ بفاس (وكان قد بايعه قبل ذلك بمراكش) ، أراد الشيخ مقابلته قصد تنسيق الخطة والحصول على السلاح والعتاد . وهكذا توجه الشيخ ماء العينين الى فاس عن طريق سفوح الاطلس ، لكن الفرنسيين ما أن علموا بذلك ، حتى أرسلوا الى الملك بفاس يندرونه بأنهم يعتبرون كل من يمد يده الى ماء العينين عدوا لهم ويعلنون الحرب عليه ، ويعطونه الخيار بين اعتقاله بفاس أو صده عنها دون لقاءه . فأوعز الملك الى "ابن يغيث" بأن يتلقى الشيخ في الطريق برسالة ليرجع عن فاس . فلما وصل الى تادلة ، أراد الفرنسيون أن يتسربوا اليه ليلا لاعتقاله ، فتصدى لهم أهل تادلة ونشأت عن ذلك حرب ضروس بينهما . ورجع الشيخ أعقابه حتى مدينة تيزنيت حيث توفي . لقد توطأ عبد العزيز ثم عبد الحفيظ عمليا مع المحتلين ، معرقلين